مناظرة
الهمذاني والخوارزمي
رؤية نقدية

دكتور /

عادل نصورة محمد بسيوني

الأستاذ المساعد في كلية اللغة العربية

جامعة الأزهر بالمنوفية

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فغيرُ بعيدٍ عن المتصفِّح لتراثنا العربي ما ضم بين طياته من دُرَرٍ تفتقرُ إلى البحث والدرس؛ تطلعًا إلى فوائدَ قد تسهم في كشف حقائق، أو تضيف إلى المكتبة العربية الزاخرة ما يساعد في بناء العقول.

ومناظرة الهمذاني والخوارزمي نتاج أدبي يفتقر – على حد علمي – إلى بحث ودرس، فهي، أي المناظرات، تمثل ظاهرة من ظواهر الثقافة العربية، وكان لها دور في إنشاء وحفظ وتداول المعارف في مختلف الحقول الفكرية على مرِّ العصور، كما لا يخفى أثرها الواضح في الجمهور من خلال التحفيز والإثارة، ومن هذا المنطلق ذاع صيت مناظرة البديع وأبي بكر حتى صارت حديث الرُّكبان، فحاولت سبر أغوارها لعلي أصيب مواطن القوة والجمال فيها.

وحقيق بهذه المناظرة أن تنال الإعجاب، فهي إيذان ببزوغ نجم أدبي (الهمذاني) وأفول آخر (الخوارزمي)، ووسيلة من وسائل صقل القدرات والخبرات العلمية، والتبادل الثقافي، غير أنها لم تحظ باهتمام الدارسين، على حد علم الباحث، فمن ذكرها جاء ذكره في صورة عابرة دون تدقيق وبحث مستقل لها.

واقتضت طبيعة الدراسة الخطة الآتية : .

المقدمة : . وفيها أسباب اختيار الموضوع، وخطته، وأهم الدراسات السابقة.

التمهيد : . وفيه حديث عن المتناظرين، وتاريخ موجز للمناظرة في الأدب العربي.

الفصل الأول :. واشتمل نص المناظرة كما رواها ياقوت في معجم الأدباء، ثم نظرات تحليلية.

الفصل الثاني : . وفيه عرض للمناظرة على مقاييس النقد الأدبي.

الخاتمة : وضمت بين طياتها عددًا من النتائج التي توصل الباحث إليها.

الفهارس :

والدراسة في مجملها محاولة فهم لعمل أدبي؛ إعجابًا وتقديرًا، وجهد بذله الباحث لإدراك حقيقة، وكشف غموض قد يظنه بعض قارئي المناظرة، فإن كان التوفيق حليفه ففضل من الله ونعمة، وإن كانت الأخرى فحسبه المحاولة، فكل بني آدم خطاء، ولعل في قابل الأيام فسحة لإدراك ما زلت فيه الأقدام، وعلى الله القصد والتكلان.

الباحث

د . عادل نصورة محمد بسيوني

تمهيد

التعريف بالرجلين : ـ

أولاً: ـ بديع الزمان: ـ[١] هو أحمد بن الحسين بن يحيى الهمذاني، أبو الفضل المعروف ببديع الزمان، ولد في ثالث عشر من جمادى الآخرة سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة في مدينة همذان، وحين جاوز العشرين من عمره فارقها، وتنقل بين البلاد طالبًا العلم، والشهرة.

درس على أبي الحسين أحمد بن فارس صاحب (المُجْمَل) وأخذ عنه جميع ما عنده قبل مفارقته همذان، وحين نزل هراة سنة ثمانين وثلاثمائة قصد الصاحب بن عباد فأعانه على التزوُّد من علوم البلدة وحسن آثارها، وفي جرجان درس علوم الإسماعيلية، ثم قصد نيسابور سنة اثنتين

---

[١] ترجمته في: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، لأبي منصور عبد الملك الثعالبي، جـ ٤، صـ ٢٩٣، ت: د . مفيد قميحة، ط. دار الكتب – بيروت، ط. الأولى، سنة ١٤٠٣ هـ = ١٩٨٣م، ومعجم الأدباء لياقوت الحموي، جـ ١، صـ ٢٣٤، ت: د. إحسان عباس، ط. دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط. الأولى، سنة ١٩٩٣م، ووفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لأبي العباس أحمد بن محمد بن خلكان، جـ ١، صـ ١٢٧، ت: د. إحسان عباس، ط. دار صادر – سنة ١٣٩٨هـ = ١٩٧٨م، والأعلام لخير الدين بن محمود الزركلي، جـ ١، صـ ١١٥، ط. دار العلم للملايين، ط. الخامسة عشرة، سنة ٢٠٠٢م.

وثمانين وثلاثمائة،[١] وفيها أملى أربعمائة مقامة نحلها أبا الفتح الإسكندري في الكدية وغيرها، وضمنها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، من لفظ أنيق، وسجع رشيق.

وفي نيسابور شجر بينه وبين أبي بكر الخوارزمي ما كان سبباً لعلوِّ أمره، إذ لم يكن في الحسبان أن أحداً من الأدباء يجرؤ على مبارزة الخوارزمي، فلما تصدى له بديع الزمان بالمساجلة، وبعد مكاتبات ومناظرات، سقط صرح الخوارزمي المنيع، وطار ذكر البديع في الآفاق، وارتفع مقداره عند الملوك والرؤساء، وأقبلت عليه الدنيا، وتوهج نجمه حين خلا له الميدان بموت الخوارزمي، وجاب الآفاق، فلم يُبق بلدًا إلا دخلها، واستفاد خيرها.

كان بديع الزمان مقبول الصورة، خفيف الروح، حسن العشرة، شريف النفس، كريم العهد، خالص الود، حلو الصداقة، مر العداوة، وشاع عنه ذكاء القريحة، وسرعة الخاطر، وصفاء الذهن، وكان صاحب عجائب وبدائع وغرائب في الأدب شعره ونثره.

توفي بديع الزمان مسمومًا في هراة يوم الجمعة الحادي عشر من جمادى الآخرة سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة، وقد أربي على الأربعين بقليل.

---

[١] هذا ما ذهب إليه الثعالبي في (يتيمة الدهر)، وفي معجم الأدباء جـ ٢، صـ ١٦٦ ذكر ياقوت أنه وردها سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة، والحق ما ذهب إليه أبو منصور، إذ لم يستقص أحد خبر بديع الزمان كالثعالبي، فقد لقيه وكتب عنه كما ذكر ياقوت نفسه، ولعل ما ورد في المعجم سهو وقع فيه الناسخ دون قصد.

ولأبي الفضل ديوان شعر صغير، وعدد من الرسائل، والمقامات.

ثانيًا: ـ الخوارزمي : ـ[١] هو أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي، ولد في خوارزم سنة ٣٢٣ هـ، ونشأ فيها، ورحل في صباه إلى بعض البلدان، فتنقل في فارس والعراق، ووصل حلب، ولقي سيف الدولة الحمداني، وأقام في بلاطه، ثم غادره، وتنقل بين البلاد، وكان يقال له (الطبري) لأنه ابن أخت (محمد بن جرير الطبري)، كما يقال له (الطبرخزمي) لأن أمَّه من طبرستان وأباه من خوارزم، فركب له من الاسمين نسبة.

يعدُّ الخوارزمي من أئمة الكتاب، والشعراء العلماء، وكان يحب الترحال، وهمه الأول فنون الأدب، فهو تارة ينظم شعراً، وأخرى يكتب نثراً، مع الاهتمام باللغة والنحو، وثقافة العصر، وقد ذاع صيته في سعة العلم بشعر العرب، وروايته، ولعل أهم صفة اتسم بها الرجل هي التذبذب في المواقف، حيث دخل السجن كثيرًا بسبب مواقفه المتباينة، فتارة يمدح المرء وأخرى يهجوه، وقد تكرر ذلك منه.

وكان الخوارزمي منتصرًا لآل بويه، ويفضلهم على من سواهم، مطلقًا للسانه العنان، فنزلت به النكبات، وكثر أعداؤه، ولعل السبب راجع إلى استقراره في آخر أيامه في ربوعهم، إضافة إلى المكرمة التي خصه بها عضد الدولة، وهو يذكر فضلهم الدائم عليه طيلة حياته.

---

١ ترجمته في: يتيمة الدهر للثعالبي، جـ ٤، صـ ١٩٤، ووفيات الأعيان لابن خلكان، جـ ٤، صـ ٤٠٠، والأعلام للزركلي، جـ ١٥، صـ ٢٥.

وفي أواخر حياته رمي ببديع الزمان، وأعان الهمذاني عليه قوم من الوجوه كانوا مستوحشين من الخوارزمي، فلاقى ما لم يكن في حسابه، وانخزل انخزالاً شديداً، ولم يحل عليه الحلول حتى مات كمدًا.

وتوفي الخوارزمي في شوال سنة ٣٨٣ هـ، ورثاه بديع الزمان وغيره من الشعراء.

له ديوان رسائل يسمى (رسائل الخوارزمي) وديوان شعر.

المناظرة في الأدب العربي

المناظرة : . مفاعلة تقتضي طرفين بينهما جدال، و "يقال: ناظرت فلانًا؛ أي: صرت نظيرًا له في المخاطبة، وناظرت فلانًا بفلان؛ أي: جعلته نظيرًا له"١.

وفي العرف الأدبي : هي لون من الحوار يعتمد على الحجج العقلية، وسرعة الخاطر، وحضور الذهن، مع الاستشهاد بالأدلة.

والمناظرة قد تكون واقعية كمناظرات سيبويه والكسائي٢، وبديع الزمان والخوارزمي٣، أو خيالية كمناظرة النرجس والورد٤، والعلم والجهل٥.

ويُشترط في المناظرة : . التقاء الطرفين، وتحديد الموضوع، والاستشهاد بالأدلة، وجذب المتلقي بحسن صياغة المعاني والصور، وحضور حكم وشهود يمكن الرجوع إليهم، والإنصات، والابتعاد عن غث

---

١ لسان العرب لابن منظور، المجلد السادس، صـ ٤٤٦٨، ت: عبد الله الكبير وآخرون، ط . دار المعارف.

٢ وأشهرها ما يعرف بالمسألة الزنبورية، وورد ذكرها في : . بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، جـ ٢، صـ٢٣٠، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. المكتبة العصرية، بيروت.

٣ معجم الأدباء لياقوت الحموي، جـ ١ صـ ٢٣٩، ت: د. إحسان عباس، ط. دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط. الأولى، سنة ١٩٩٣م .

٤ نور النهار في مناظرة الورود والرياحين والأزهار – للمارديني، صـ ٨، ت: محمد الششتاوي، ط. دار الآفاق العربية، ط. الأولى، سنة ١٤١٩هـ = ١٩٩٩م.

٥ المفاخرات والمناظرات، جمع وتحقيق: د. محمد حسان الطيان، صـ ١٨٥، ط. دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط. الأولى، سنة ١٤٢١هـ = ٢٠٠٠م.

الكلام، وضبط النفس وعدم الانفعال، وخفض الصوت، والتواضع، والتسليم بالحقيقة بعد الانتهاء.١

والأصل في المناظرة إظهار الصواب، فالمجادلة هي المنازعة في المسألة العلمية لإلزام الخصم سواء أكان كلامه فاسدًا أم لا، فإن علم بفساد كلامه وصحة كلام خصمه فهي المكابرة، وإن لم يعلم فهي المعاندة.٢

والمتتبع لفن المناظرات في الأدب العربي يلمس خروجًا عن الغاية المنشودة، فكثير منها تجاوز إدراك الحقيقة إلى التفاخر أو الانتقام، فعلى سبيل المثال يقف المتصفح لنتاج الأدباء في العصر الجاهلي على مناظرة كسرى أنو شروان والنعمان بن المنذر في شأن العرب٣، وفيها يعلو التفاخر على طلب الحقيقة، وفي صدر الإسلام يناظر وفد بني تميم خطباء

---

١ مقدمة ابن خلدون، جـ ٢، صـ ٢٠٣ بتصرف واختصار، ت: عبد الله الدرويش، ط. دار البلخي – دمشق، ط الأولى، سنة ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م، وجواهر الأدب للسيد أحمد الهاشمي، جـ ١، صـ ٢٢٤، ط. مؤسسة المعارف، بيروت.

٢ الكليات – معجم في المصطلحات والفروق اللغوية لأبي البقاء أيوب الكفوي، صـ ٨٤٩ بتصرف واختصار، ت: د . عدنان درويش، ط. مؤسسة الرسالة، ط. الثانية، سنة ١٤١٩هـ = ١٩٩٨م .

٣ جواهر الأدب للهاشمي، جـ ١ صـ ٢٢٤، العقد الفريد، أحمد بن عبد ربه، جـ ١ صـ ٢٧٥، ت: د . مفيد قميحة، ط. دار الكتب العلمية ، بيروت، ط. الأولى، سنة ١٤٠٤هـ – ١٩٨٣م.

وشعراء رسول الله صلى الله عليه وسلم١، ولا يخفى على القارئ لها ما فيها من حب التفاخر والانتقام قبل دخولهم في الإسلام، وكان العصر الأموي ميدانًا خصبًا لهذا الفن، حيث المذاهب المختلفة، والتصدي لأعداء الإسلام بالحجج والبراهين، وكان "إبراهيم النظام" فارس هذا الميدان، وللمناظرات في العصر الأموي حضور واضح، ونهضة غير مسبوقة؛ حيث الحرص من ولاة الأمر على انتشارها، فتعددت حوارات سيبويه والكسائي٢ وغيرهما من النحاة، وكان الأعراب القائمون بالباب هم الأدلة والحَكَم، وفي العصر العباسي يعلو شأن هذا الفن، فيصير مألوفًا في مجالس الخلفاء والأمراء والوجهاء ٣، وكانت مناظرة الهمذاني والخوارزمي درة هذا الفن؛ حيث رفعت من شأن مغمور (الهمذاني)، ووضعت من قدر مشهور (الخوارزمي)، وضمت بين طياتها ثروة لغوية وأدبية وعلمية جديرة بالدرس.

---

١ السيرة النبوية لأبي محمد عبد الملك بن هشام، جـ ٤ صـ ٢٤٢، ت: مجدي فتحي السيد، ط. دار الصحابة للتراث بطنطا، ط. الأولى، سنة ١٤١٦ هـ = ١٩٩٥م.

٢ بغية الوعاة، السيوطي، جـ ٢، صـ٢٣٠.

٣ ما ذكرته من نماذج لفن المناظرات في الأدب العربي قليل من كثير تعج به كتب التراث، ومنها : جواهر الأدب للهاشمي، جـ ١ صـ ٢٢٤ وما بعدها، والعقد الفريد، جـ ١، والمحاسن والأضداد للجاحظ، ط. مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط. الأولى، سنة ١٣٢٤ هـ = ١٩٩٤م، ومعجم الأدباء لياقوت، والإنصاف في مسائل الخلاف لابن الأنباري، ت: د. جودة مبروك، ط. مكتبة الخانجي، ط. الأولى.

وإذا سلمنا بمقولة (الكفوي) : . " المناظرة : هي النظر بالبصيرة من الجانبين في النسبة بين الشيئين إظهارًا للصواب، والمجادلة : هي المنازعة في المسألة العلمية لإلزام الخصم سواء كان كلامه في نفسه فاسدًا أو لا ، وإذا علم بفساد كلامه وصحة كلام خصمه فنازعه فهي المكابرة، ومع عدم العلم بكلامه وكلام صاحبه فنازعه فهي **المعاندة"١. إذا سلمنا بذلك فحوار الهمذاني والخوارزمي، وكثير مما سبق ذكره من نماذج يدخل في باب المفاخرة والمجادلة، ولعل الأقرب إلى النفس أن ما وقع بين الرجلين لون من المناظرات أصابه التطور، وإن كان تطورًا سلبيًّا منحرفًا عن الغاية المنشودة، فأركان وشروط المناظرة متحققة في هذه الأعمال، والمجادلة بالصورة التي ذكرها "الكفوي" سبيل من سبل المناظرة، وفي السطور القادمة من هذه الدراسة إن شاء الله تعالى تفصيل لهذا الإجمال.**

---

١ الكليات، صـ ٨٤٩ .

المبحث الأول

مناظرة الهمذاني والخوارزمي
عرض وتحليل

بين يدي المناظرة

نزل بديع الزمان نيسابور سنة ٣٨٣ هـ، واتصل بالخوارزمي الذي تجاهله، ثم راسله، فردَّ أبو بكر برسائل تحمل بين طياتها جفاءً، فأسرَّها الهمذاني في نفسه، ورأى في الجفاء فرصة للشهرة، إذا استطاع أن ينال من قدر شيخ نيسابور ومنزلته التي يسافر بها الركبان.

وزاد من حدة الموقف واشتعال الحرب الكلامية بين الرجلين قوم من وجوه نيسابور كانوا مستوحشين من أبي بكر، فلمسوا في الهمذاني، سلاحًا للفتك بالخوارزمي.

ويترفع أبو بكر في بداية الأمر عن المناظرة؛ استعلاءً، وقد يكون إحجامه خوفًا من الفتى المتربص به، وبعد طلب مستمر من القوم يخضع الخوارزمي لمرادهم، وتكون المناظرة التي امتدت أيامًا، وكانت الغلبة فيها للبديع، الذي علا شأنه؛ مما أصاب الخوارزمي بالخزي والحسرة، الأمر الذي دفع عددًا من المؤرخين إلى القول بأنه مات كمدًا وحزنًا.

نص المناظرة*

استمرت المناظرة بين الرجلين ليالي، أشهرها ليلتان، دارت فيهما المناقشات حتى كاد الفجر أن ينفلق ضياؤه، وهما : .

الليلة الأولى: . يقول ياقوت وقد ذكر الخوارزمي : . " رمي بحجر البديع الهمذاني في سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة، وأعان البديعَ قومٌ من وجوه نيسابور كانوا مستوحشين من أبي بكر، فجمع السيد نقيب السادة بنيسابور أبو علي بينهما، وأراده على الزيارة وداره بأعلى ملقباذ، فترفع، فبعث إليه السيد مركوبه، فحضر أبو بكر مع جماعة من تلامذته، فقال له البديع: . إنما دعوناك لتملأ المجلس فوائد، وتذكر الأبيات الشوارد١، والأمثال الفوارد٢، ونباحثك فنسعد بما عندك، وتسألنا فتسرّ بما عندنا، ونبدأ بالفن الذي ملكت زمامه، وطار به صيتك، وهو الحفظ إن شئت، والنظم إن أردت، والنثر إن اخترت، والبديهة إن نشطت، فهذه دعواك التي

---

* معجم الأدباء لياقوت الحموي، جـ ١ صـ ٢٣٩، مسالك الأبصار، أحمد بن يحيى العمري جـ ١٢ صـ ٨٨ – ١١٣، ط. المجمع الثقافي في أبي ظبي، ط. الأولى، سنة ١٤٢٣هـ، وفيها تفصيل أعمق من رواية ياقوت، وكم كبير من الشتائم، ومجلة الرسالة، أحمد حسن الزيات، العدد ٣٤٣، صـ ٢٨ وما بعدها، بقلم: أ. علي الجندي، ورسائل الهمذاني، صـ ١٣ وما بعدها، ط. الجوائب – الأستانة، ط. الأولى، سنة ١٢٩٨هـ.

١ الشوارد : . جمع شاردة، وهي القصيدة المنتشرة الذائعة .

٢ الفوارد . جمع فارد، والفوارد من الإبل: التي لا شبيه لها.

تملأ منها فاك، فأحجم الخوارزمي عن الحفظ لكبر سنه، ولم يُجِل في النثر قداحًا، وقال: أبادهك١، فقال البديع: . الأمر أمرك يا أستاذ، فقال له الخوارزمي: . أقول لك ما قال موسى للسحرة: . "قال بل ألقوا"٢، فقال البديع: . ٣

الشعر أصعب مذهبًا ومصاعدًا من أن يكون مطيعه في فَكّهِ

والنظم بحر والخواطر معبر فانظر إلى بحر القريض وفُلكهِ

فمتى توانى في القريض مقصر عرَّضتُ أذن الامتحان لعركه٤

وهي أبيات كثيرة فيها مدح للشريف أبي علي، ومفاخرة وتهجين٥ للخوارزمي، فقال الخوارزمي أبياتًا ولكن ما أبرزها من الغلاف، فقال له

---

١ أبادهك : تبادهوا الخطب والأشعار : ارتجلوها، والتفاعل ليس على حقيقته.

٢ سورة طه ، آية رقم : ٦٦ .

٣ ديوان الهمذاني، صـ ١١٧، ت: يسري عبد الغني، ط. دار الكتب، بيروت، ط. الثانية، سنة ١٤٢٤هـ = ٢٠٠٣م.

٤ عركه : العرك : الوجع الناجم عن ضرب الأذن.

٥ تهجين : تحقير.

البديع : . أما تستحي أن يكون السنور١ أعقل منك؛ لأنه يجعر٢ فيغطيه بالتراب، فقال لهما الشريف: . انسجا على منوال المتنبي :٣.

أرقُّ على أرق ومثلي يأرق

فابتدأ أبو بكر، وكان إلى الغايات سباقًا، وقال : . [٤]

فإذا ابتدهت بديهة يا سيدي فأراك عند بديهتي تتقلَّق

ما لي أراك ولستَ مثلي في الورى مُتموِّها بالترهات تُمَخرِقُ [٥]

ونظم أبياتًا، ثم اعتذر، فقال: هذا كما يجيء لا كما يجب، فقال البديع: . قبل الله عذرك، لكن وقفت بين قافات خشنة، كل قاف كجبل قاف، فخذ الآن جزاءً عن قرضك، وأداء لفرضك : . [٦]

---

١ السنور : القط.

٢ يجعر : يتغوط، كناية عن ضعف نتاجه الشعري.

٣ مطلع قصيدة قالها المتنبي في مدح أبي المنتصر شجاع بن محمد بن أوس بن معن الأزدي، وتتمة البيت : .

أرق على أرق ومثلي يأرق * * * وجوًى يزيد وعبرة تترقرق

شرح ديوان المتنبي لعبد الرحمن البرقوقي، ٧٣/٣، ط . دار الكتاب العربي، بيروت، سنة ١٤٠٧هـ = ١٩٨٦م.

٤ رسائل الهمذاني، صـ ٢٣، والمصادر والمراجع التي تناولت المناظرة، وليس لها ذكر في رسائل الخوارزمي.

٥ متموهًا : من موهت الشيء : طليته، الترهات : جمع ترهة، وهي الأباطيل، تمخرق: المخرق: الأحمق.

٦ ديوان بديع الزمان، صـ ١٠٦ .

مهلاً أبا بكر فزَندُكَ أضيق واخرس فإن أخاك حي يرزق [١]

يا أحمقًا وكفاك تلك فضيحة جرَّبْت نار معرَّتي هل تحرق؟ [٢]

فقال له أبو بكر: . (يا أحمقًا) لا يجوز؛ فإنه لا ينصرف، فقال البديع: . لا نزال نصفعك حتى ينصرف، وتنصرف معه، وللشاعر أن يرد ما لا ينصرف، وإن شئتَ قلتُ: يا كودنًا٣، وقولك في البيت الأول (يا سيدي) وقولك (تتقلق) مدحت أم قدحت؟ فإن اللفظين لا يركضان في حلبة، فقال لهما الشريف: . قولا على منوال المتنبي: . [٤]

أهلا بدارٍ سَبَاكَ أغيَدُها

فقال البديع : . [٥]

---

١ زندك: الزند: موصل طرف الذراع في الكف، والمعنى: زندك لا يستطيع الحركة وفعل ما يرفع من قدرك.

٢ معرتي : . المعرة : الإساءة والمكروه .

٣ كودنًا : الكودن : البغل، والفرس الهجين السيِّء .

٤ مطلع قصيدة قالها المتنبي في مدح : محمد بن عبد الله العلوي، وتتمة البيت البيت : .

أهلا بدار سباك أغيدها * * * أَبعَدُ ما بان عنك خُرَّدُها

وخردها : جمع خريدة، وهي البكر التي لم تمس، والقصيدة في شرح ديوان المتنبي للبرقوقي جـ ٢ صـ١٧.

٥ لم أعثر عليه في ديوان بديع الزمان، وهو في رسائله صـ ٢٤، وموجود في المصادر التي ذكرت المناظرة.

يا نعمة لا تزال تجحدها ومنة لا تزال تكندها

فقال أبو بكر : الكنود قلة الخير لا الكفران، فكذبه الجمع، وقالوا: ما قرأت قوله تعالى: "إن الإنسان لربه لكنود"١ أي: لكفور، فقال له أبو بكر: . أنا اكتسبت بفضلي دية أهل همذان، فما الذي اكتسبت أنت بفضلك؟ فقال له البديع: أنت في حرفة الكدية٢ أحذق٣، وبالاستماحة٤ أحرى وأخلق٥، فقطعه الكلام، ثم أنشد القَوَّال: .[٦]

وشبهنا بنفسج عارضيه بقايا اللطم في الخد الرقيق

فقال الخوارزمي: أنا أحفظ هذه القصيدة، فقال البديع: أخطات، فإن البيت على غير هذه الصيغة ، وهي: .

وشبهنا بنفسج عارضيه بقايا الوشم في الوجه الصفيق٧

فقال له أبو بكر: . والله لأصفعنك ولو بعد حين، فقال له البديع: أنا أصفعك اليوم وتضربني غدًا، فاليوم خمر، وغدا أمر١، وأنشد قول ابن الرومي : .[٢]

---

١ سورة العاديات : آية رقم ٦.

٢ الكدية : الشحاذة .

٣ أحذق : أبرع وأمهر .

٤ الاستماحة : طلب العطاء .

٥ أخلق : أجدر .

٦ لم أصل إلى قائله، مع وجوده في المصادر والمراجع التي ذكرت المناظرة .

٧ الصفيق : السميك الغليظ .

رأيت شيخًا سفيهًا يفوق كل سفيه

وقد أصاب شبيهًا له وفوق الشبيه

ثم أنشد البديع : .[٣]

وأنزلني طول النوى دار غربة إذا شئت لاقيت امرءًا لا أشاكله

أُحامِقهُ حتى يقال: سجيةٌ ولو كان ذا عقل لكنت أعاقله[٤]

فأمال النعاس الرؤوس، وسكنت الألحان والنفوس، وسلب الرقاد الجلوس، فنام القوم كعادتهم في ضيافات نيسابور، وأصبحوا فتفرقوا، وبعضهم يحكم بغلبة البديع، وبعضهم يحكم بغلبة الخوارزمي، وسعى الفضلاء بينهما

---

١ مقولة لامرئ القيس صارت مثلاً، يمكن مراجعتها في: الكامل في التاريخ، لابن الأثير جـ ١، صـ ٤٦٥، ت: عمر عبد السلام، ط. دار الكتاب العربي، بيروت، ط. الأولى، سنة ١٤١٧هـ = ١٩٩٧م.

٢ بعض أبيات قالها ابن الرومي في هجاء خالد القحطبي مطلعها : .

يا خالد ابن أبيه * * * ليس الذي يدعيه

والأبيات في الديوان بصيغة أخري، وهي : .

إن كان شيخًا سفيهًا * * * يبذ كل سفيه

فقد أصاب شبيهًا * * * به وفوق الشبيه

ديوان ابن الرومي، جـ ٣، صـ ٥١٨، شرح : أحمد بسج، ط . دار الكتب – بيروت، ط. الثالثة، سنة ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٢م.

٣ ديوان الشافعي، صـ١٢٠، ت: د. إميل بديع، ط. دار الكتاب العربي، بيروت، ط. الثالثة، سنة ١٤١٦هـ = ١٩٩٦م.

٤ مقة : أحمر المآقي والجفون من قلة الأهداب، أو من لونه أبيض في زرقة.

بالصلح، ودخل عليه البديع واعتذر، وتاب واستغفر مما تقدم من ذنبه وما تأخر، وقال له البديع : بعد الكدر صفو، وبعد الغيم صحو، فعرض عليه الخوارزمي الإقامة عنده سحابة يومه، فأجابه البديع، وأضافه الخوارزمي".

الليلة الثانية : يقول ياقوت : "وكان بعض الرؤساء مستوحشًا من الخوارزمي، وهيأ مجمعًا في دار الشيخ السيد أبي القاسم الوزير، وكان أبو القاسم فاضلاً ملء إهابه[١]، وحضر أبو الطيب سهل الصعلوك، والسيد أبو الحسين العالم، فاستمال البديع قلب السيد أبي الحسين بقصيدة قالها في مدح أهل البيت أولها : .[٢]

يا معشرًا ضرب الزمـ ـان على معرسهم خيامه

ثم حضر المجلس القاضي أبو عمر البسطامي، وأبو القاسم ابن حبيب، والقاضي أبو الهيثم، والشيخ أبو نصر ابن المرزبان، ومع الإمام أبي الطيب الفقهاء والمتصوفة، وحضر أبو نصر الماسرجسي مع أصحابه، والشيخ أبو سعد الهمذاني، ودخل مع الخوارزمي جمع غفير من أصحابه، فقيل لهما: . أنشدا على منوال قول أبي الشيص: .[٣]

---

١ إهابه : جلده، والمراد ملء العيون.

٢ ديوان بديع الزمان، صـ ١٣٠، وهو برواية أخري، وهي: . يا لمة ضرب الزمـ * * * ان على معرسها خيامه

٣ مطلع قصيدة في مدح عقبة بن جعفر، ويمكن مراجعتها في : . ديوان أبي الشيص الخزاعي، صـ ٧٥، ت: عبد الله الجبوري، ط. المكتبة الإسلامية، بيروت، ط. الأولى، سنة ١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م.

أبقى الزمان به ندوب عضاض ورمى سواد قرونه ببياض

فابتدر الخوارزمي، فقال: .[١]

يا قاضيا ما مثله من قاض أنا بالذي تقضي علينا راض

ومنها : .

ولقد بليت بشاعر متهتك لا بل بليت بناب ذئب غاض

فقال البديع: ما معني قولك: ذئب غاض؟ فقال أبو بكر: ما قلته، فشهد عليه الحاضرون أنه قاله، فقال أبو بكر: الذئب الغاض: الذي يأكل الغضا، فقال البديع: استنوق الذئب٢، صار الذئب جملاً يأكل الغضا!، ثم دخل الرئيس أبو جعفر، والقاضي أبو بكر الحيري، والشيخ أبو زكريا، والشيخ أبو الرشيد المتكلم، فقال الرئيس قولاً٣ على هذا النمط: .[١]

---

١ رسائل بديع الزمان، صـ ٣٤، مع بعض الاختلاف في رواية الأبيات.

٢ فيه تأثر بقول طرفة بن العبد: استنوق الجمل، وهي مقولة صارت مثلاً، قالها طرفة للمتلمِّس تعقيبًا على قوله : .

أتناسى الهم عند احتضاره * * * بناج علي الصيعرية مُكدَم

العقد الفريد ، جـ ٦ ، صـ ٢٠٦ .

٣ في رواية ياقوت سقط نتج عنه خلط وسوء فهم، ويمكن تداركه بمراجعة رواية "العمري" في مسالك الأبصار، جـ ١٢، صـ ١٠٦، حيث يقول: . "اقترح الرئيس أن ينشدا على وزن اختاره، فتلمظ البديع بلسانه، وأنشد اثني عشر بيتًا مطلعها: .

برز الربيع لنا برونق مائه * * * وانظر لمنظر أرضه وسمائه

والترب بين ممسك ومعنبر * * * من نوره بل مائه وروائه

=

برز الربيع لنا برونق مائه فانظر لمنظر أرضه وسمائه

والترب بين ممسَّك ومعنبر من نوره بل مائه وروائه

ثم أنشد الخوارزمي على هذا النمط، فلما فرغ من إنشاده، قال البديع للوزير والرئيس: لو أن رجلاً حلف بالطلاق أني لا أقول شعرًا، ثم نظم تلك الأبيات التي قالها الخوارزمي، هل كنتم تطلقون امرأته عليه؟ فقال الجماعة: لا يقع بهذا طلاق، ثم قال لأبي بكر: انقد علىَّ فيما نظمتُ، واحكم عليه كما حكمتُ، فأخذ الأبيات وقال: لا يقال نظرت لكذا، ويقال نظرت إلى كذا، وأنت قلت: فانظر لمنظر، وشبهت الطير بالمحصنات، وهذا تشبيه فاسد، ثم شبهتها بالمغنيات حين قلت : .

والطير مثل المحصنات صوادح مثل المغني شاديا بغنائه

كيف توصف المحصنات بالغناء؟ ثم قلت: كالبحر في تزخاره، والغيث في إمطاره، والغيث هو المطر، فقال البديع: . الغيث: المطر والسحاب، وصدقه الحاضرون، وأنكروا على الخوارزمي، فقال الإمام أبو الطيب: علمنا أي الرجلين أفضل وأشعر، فقام البديع وقبل رأس الخوارزمي ويده، وقال : اشهدوا أنَّ الغلبة له، علي سبيل الاستهزاء، وتفرَّق الناس، واشتغلوا بتناول الطعام، وأبو بكر ينطق عن كبد حرَّى[٢]، والوزير يقول

وقال الخوارزمي تسعة أبيات، غابت عن حفظنا، جمع فيها بين إقواء وإكفاء وأخطاء وإبطاء".

١ ديوان بديع الزمان، صـ ٣٠ برواية أخري، وهي : .

برق الربيع لنا برونق مائه * * * فانظر لروعة أرضه وسمائه

٢ كبد حرَّى : بها حرقة وغيظ وألم .

للبديع: ملكت فأَسْجِحْ١، فلما قام أبو بكر أشار إلى البديع وقال: لأتركنك بين الميمات، فقال: ما معنى الميمات؟ فقال: بين مهدوم، ومهزوم، ومغموم، ومحموم، ومرجوم، ومحروم، فقال البديع: لأتركنك بين الهيام٢، والسقام٣، والسام٤، والبرسام٥، والجذام، والسرسام٦، وبين السينات: بين منحوس، ومنخوس٧، ومنكوس٨، ومعكوس، وبين الخاءات: من مطبوخ، مطبوخ، ومسلوخ، ومشدوخ٩، ومفسوخ، وممسوخ، وبين الباءات: بين مغلوب، ومسلوب، ومصلوب، ومنكوب، فخرج البديع وأصحاب الشافعي يعظمونه بالتقبيل والاستقبال والإكرام والإجلال، وما خرج الخوارزمي حتى

---

١ " ملكت فأسْجِحْ " : بعض حديث رواه البخاري، وتتمته "يا ابن الأكوع : . ملكت فأسجح، إن القوم يُقرَون في قومهم . "ومعنى فأسجح : . من سَجِحَ : أي صار سهلاً ليِّنًا ، ويمكن مراجعة الحديث في : صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، جـ ٤، صـ ٦٦، ت: محمد زهير بن ناصر، ط. دار طوق النجاة، بيروت، ط . الأولى، سنة ١٤٢٢ هـ.

٢ الهيام : الجنون ، وداء يصيب الإبل .

٣ السقام : المرض .

٤ السام : الموت .

٥ البرسام : ورم في الدماغ يتغير منه عقل الإنسان فيهذي .

٦ السرسام : ورم في حجاب الدماغ تحدث عنه حمى دائمة .

٧ منخوس : النخس : جرب يصيب البعير عند ذنبه .

٨ منكوس : مقلوب ، ومريض عاوده المرض ، ورجل مرخي عينيه إلى الأرض الأرض ذلة ومهانة .

٩ مشدوخ : من شدخ رأسه، إذا شجه وكسر جمجمته .

غابت الشمس، وعاد إلى بيته وانخزل انخزالاً شديدًا، وانكسف باله، وانخفض طرفه، ولم يحل عليه الحول حتى خانه عمره".

نظرات تحليلية: ـ

أولاً : ـ مصادر المناظرة : ـ ورد ذكر مناظرة الهمذاني والخوارزمي في غير مصدر ومرجع[١]؛ مما يعكس الاهتمام بها، ولعل السبب راجعٌ إلى : .

١ – احتوائها ثروة لغوية وأدبية ونقدية وفكرية جديرة بالبحث والدراسة .

٢ – أثرها الواضح في التاريخ الأدبي.

٣ – هي مثال واضح القسمات لتطور أصاب المناظرات، فتنوعت الموضوعات بين الشعر، والنثر، والنقد، وفنون أخرى، مما جعلها قريبةً من المفاخرات.

والمتتبع لنص المناظرة، وأحداثها، وما تعلق بها من مواقف، المتتبع لها في مصادرها ومراجعها يلاحظ الآتي : .

١ – التباين في النص زيادة ونقصانًا[٢]، ففي رواية "العمري" زيادة أسهمت في كشف غموض ولبس قد يقع فيه القارئ لرواية ياقوت الذي يقول: "ثم دخل الرئيس أبو جعفر، والقاضي أبو بكر الحيري، والشيخ أبو زكريا، والشيخ أبو الرشيد المتكلم، فقال الرئيس قولاً على هذا النمط: .

---

١ سبقت الإشارة إلى عدد منها في صـ ١٤ .

٢ واعتمدت في الدراسة على رواية ياقوت في معجم الأدباء؛ لكونها الأكثر شهرةً شهرةً وتداولاً، مع الإشارة إلى النسخ الأخرى عند وجود اختلاف يقتضيه النص .

برز الربيع لنا برونق مائه فانظر لمنظر أرضه وسمائه

والترب بين ممسك ومعنبر من نوره بل مائه وروائه

ثم أنشد الخوارزمي على هذا النمط. "ففي هذا النص غموض من ناحيتين: .

أ – قائل البيتين.

ب – قوله "ثم أنشد الخوارزمي" يوحي بأن الهمذاني أنشد أولاً، فأين قوله إذا؟

وتأتي رواية "العمري" فتزيل هذا الإبهام، حيث يقول: . "اقترح الرئيس أن ينشدا على وزن اختاره، فتلمظ البديع بلسانه، وأنشد اثني عشر بيتًا مطلعها : .

برز الربيع لنا برونق مائه ☆ ☆ ☆ وانظر لمنظر أرضه وسمائه

والترب بين ممسك ومعنبر ☆ ☆ ☆ من نوره بل مائه وروائه

وقال الخوارزمي تسعة أبيات، غابت عن حفظنا، جمع فيها بين إقواء وإكفاء وأخطاء وإيطاء"[١] .

٢ – افتقاد المناظرة في تراث الخوارزمي، فقد أعمل الباحث نظره، وأعاده كرَّة وكرَّتين في تراث الرجل فلم يجد إشارة إليها، أو إلى موقف من مواقفها.

---

١ مسالك الأبصار، جـ ١٢، صـ ١٠٦ .

وافتقادها في تراث أبي بكر يقضي ببطلان ما حاول "د. إحسان عباس" محقق "معجم الأدباء" إثارته من شكوك حين قال: "ومن الواضح أن ما يورده ياقوت إنما هو حكاية البديع للقصة، وهي من طرف واحد."١ ففي هذا إيحاء بأن الأحكام الواردة في نهاية المناظرة قائمة على أسس واهية؛ لكونها برواية أحد الطرفين، ولا شك في تحامله على خصمه.

٣ – اتفق رواة المناظرة على رفض الخوارزمي لها، وتحمس الهمذاني، وبعد إلحاح وافق أبو بكر، فحضر المجلس وجماعة من تلاميذه، وفي هذا إشارة إلى تردده وخوفه من مواجهة الفتى المتربص به؛ لعلمه بتفوقه عليه، فقد أدرك قدراته من رسائل متداولة بينهما قبل المناظرة٢.

٤ – طريقة استهلال المناظرة توحي بإدراك الهمذاني للخوف في ملامح ومواقف خصمه، وأن النصر قاب قوسين أو أدنى منه، فيستفتح بما يحمل في طياته سخرية وتهكمًا، حيث يقول: والبديهة إن نشطت، فهذه دعواك التي تملأ منا فاك، وزاده جرأة ويقينًا بالفوز القريب:.

أ – وقوفه على قدرات خصمه من خلال الرسائل المتبادلة بينهما.

ب – خوض الخوارزمي المناظرة على مضض، وحياءً من الحضور.

---

١ معجم الأدباء، جـ ١، صـ ٢٣٩ هامش رقم ٣ .

٢ ذكر البديع عددًا من هذه الرسائل في صـ ١٣ من رسائله، ولم يتطرق إليها الخوارزمي.

ثانيًا: ـ موضوع المناظرة وعناصرها الفكرية: .

يشتمل نصُّ المناظرة على فكرتين: .

الأولى: الهدف المنشود من هذه اللقاءات. الثانية: مجالات الحديث في التناظر.

أما الهدف: فيحدده الهمذاني بقوله: إنما دعوناك لتملأ المجلس فوائد، وتذكر الأبيات الشوارد، والأمثال الفوارد، ونباحثك فنسعد بما عندك، وتسألنا فتسرّ بما عندنا" وهي غاية مثالية، تضع ما حدث في سنام المناظرات المحكوم بجودتها، فـ "المناظرة: هي النظر بالبصيرة من الجانبين في النسبة بين الشيئين إظهارًا للصواب، والمجادلة: هي المنازعة في المسألة العلمية لإلزام الخصم سواء كان كلامه في نفسه فاسدًا أو لا، وإذا علم بفساد كلامه وصحة كلام خصمه فنازعه فهي المكابرة، ومع عدم العلم بكلامه وكلام صاحبه فنازعه فهي المعاندة."[١] فمتى كان الهدف إدراك الفائدة العلمية، والبحث عن الحقيقة، متى تحقق ذلك كانت الغاية نبيلة وبنَّاءة.

واستهلال الهمذاني لحديثه بتحديد الغاية المرجوة من المناظرة بهذه الصورة ينمّ عن ذكاء، وعلم بأسس هذا الفن، فبدهائه حاول استمالة قلوب وعقول الحاضرين، ببيان أن غايته من اللقاء مع شيخ نيسابور هو التعلم منه، وإدخال السعادة والسرور عليه بإدراك تلاميذه لبعض علمه، ويؤكد غايته بأسلوب يبدي دماثة خلقه وتواضعه مع أستاذه، حيث يقول:

---

١ الكليات، الكفوي، صـ ٨٤٩ .

"ونباحثك فنسعد بما عندك، وتسألنا فتسرّ بما عندنا" فحديثه مع الشيخ هو مباحثة هدفها الإفادة العلمية، وحديث الشيخ معه سؤال واختبار من أستاذ لتلميذ، وبهذا دفع عن نفسه شبهة التطاول وسوء الأدب، واستطاع أن يكسب احترام وعطف الحاضرين.

غير أن المتتبع لما حدث بين الرجلين يلمس غاية أخرى، فقد قال البديع في رسائله: "واتفق أن السيد أبا علي نشط للجمع بيني وبينه، فدعاني، فأجبت، ثم عرض عليَّ حضور أبي بكر، فطلبت ذلك، وقلت: . هذه عدة كنت أستنجزها، وفرصة لا أزال أنتهزها"١ وغير بعيد عن القارئ ما تنمّ عنه ألفاظ الرجل من رغبة أكيدة في انتهاز الفرصة السانحة للانتقام من الخوارزمي، وهذه هي الغاية الحقيقية من المناظرة، ويؤكد هذا: .

١ – رسائل متبادلة بينهما، محاولة تقرُّب من الهمذاني وتجاهل وترفُّع من أبي بكر٢ .

٢ – تطاول من البديع على شيخ نيسابور في غير موقف من مواقف المناظرة، ومنها: .

*** قوله: "أما تستحي أن يكون السنور أعقل منك؛ لأنه يجعر، فيغطيه بالتراب".**

*** و "لا نزال نصفعك حتى ينصرف، وتنصرف معه".**

---

١ رسائل الهمذاني، صـ ١٩ .

٢ سبقت الإشارة إلى هذا الموقف في صـ ١٣ .

والمتأمل في الأحداث السابقة على المناظرة يلمس هدفًا قريب الصلة بما ذكر، مع اختلاف في الجهة، فقد رغب بعض سادة نيسابور في الانتقام من أبي بكر، إذ كانوا مستوحشين منه، فعملوا جاهدين على الجمع بين الرجلين، وتمكنوا من رمي الخوارزمي بحجر البديع، يقول ياقوت: "وأعان البديعَ قوم من وجوه نيسابور كانوا مستوحشين من أبي بكر"، وهذه الغاية وإن كانت غير بنَّاءة إلا أنها هدف للمناظرة يعتدُّ به، ولا يمكن غض الطرف عنه، فهو يوفر لها شرطًا من شروط هذا الفن.

ومن هذا المنطلق يدرك القارئ للمناظرة أن أهدافها لا تنحصر فيما يرنو إليه المتخاصمان فقط، بل ينصرف إلى رغبات من حضر اللقاء، وحرص على وقوعه.

وأما مجالات الحديث في المناظرة فيحددها الهمذاني بقوله لصاحبه: "ونبدأ بالفن الذي ملكت زمامه، وطار به صيتك، وهو الحفظ إن شئت، والنظم إن أردت، والنثر إن اخترت، والبديهة إن نشطت، فهذه دعواك التي تملأ منها فاك".

وتفرض أحداث اللقاء، ومواقف الحاضرين منها، مجالات أخرى، أظهرها: ـ النقد الأدبي، والثقافة اللغوية، والمعارف الاجتماعية.

وكان النظم على البديهة أكثر المجالات استخدامًا، حيث تكرر في غير موضع، ومنها: ـ

*** "فقال له الخوارزمي: ـ أقول لك ما قال موسى للسحرة: ـ "قال بل ألقوا"، فقال البديع: ـ**

الشعر أصعب مذهبًا ومصاعدًا من أن يكون مطيعه في فَكّهِ

والنظم بحر والخواطر معبر فانظر إلى بحر القريض وفُلكه

فمتى توانى في القريض مقصر عرَّضتُ أذن الامتحان لعركه

وهي أبيات كثيرة فيها مدح للشريف أبي علي، ومفاخرة وتهجين للخوارزمي، فقال الخوارزمي أبياتًا ولكن ما أبرزها من الغلاف".

*** "فقال لهما الشريف: . انسجا على منوال المتنبي: . أرقُّ على أرق ومثلي يأرق**

فابتدأ أبو بكر، وكان إلى الغايات سباقًا، وقال: .

فإذا ابتدهت بديهة يا سيدي فأراك عند بديهتي تتقلَّق

ما لي أراك ولستَ مثلي في الورى مُتمَوِّها بالترهات تُمَخرِقُ

ونظم أبياتًا، ثم اعتذر، فقال: هذا كما يجيء لا كما يجب، فقال البديع: . قبل الله عذرك، لكن وقفت بين قافات خشنة، كل قاف كجبل قاف، فخذ الآن جزاءً عن قرضك، وأداء لفرضك: .

مهلا أبا بكر فزَندُكَ أضيق واخرس فإن أخاك حي يرزق

يا أحمقًا وكفاك تلك فضيحة جربت نار معرَّتي هل تحرق؟

*** " فقال لهما الشريف: . قولا على منوال المتنبي: .**

أهلا بدارٍ سَبَاكَ أغيَدُها

فقال البديع : .

يا نعمة لا تزال تجحدها ومنة لا تزال تكندها

فقال أبو بكر: الكنود قلة الخير لا الكفران، فكذبه الجمع، وقالوا ما قرأت قوله تعالى: "إن الإنسان لربه لكنود" أي لكفور، وهنا يعجز الخوارزمي عن المبادهة ويكتفي بنقد الهمذاني، ويشهد الحضور بتخاذله وتفوق البديع في هذا الإطار.

والاستهلال بالنظم على المبادهة أدى إلى تكرار هذا النمط من الحديث؛ وما زال الطرفان في المرحلة الأولى، وما زال الوجهاء في مطلع الاختبار للرجلين.

والاستفتاح بالمبادهة كان استجابة للخوارزمي، والمتأمل يدرك أن الرجل زلت قدمه لـ: .

١ – طلب من خصمه الاستهلال بالنظم على البديهة، فاختار البديع الوزن والقافية والمعاني كما يشتهي، فضاق السبيل على أبي بكر، وأصبح محصورًا في إطار اختاره خصمه.

٢ – اختياره للمبادهة اختيار غير موفق، فلا شك في أن النظم على البديهة يقتضي مهارة وتمكنًا، ولهذا تجنبه كثير من الشعراء المشهورين، فكانت الحوليات.

ومن سبل المناظرة : <u>النقد الأدبي</u>، وكان في غير موضع، ومنها:

*** "فابتدأ أبو بكر، وكان إلى الغايات سبَّاقًا، وقال: .**

فإذا ابتدهت بديهة يا سيدي فأراك عند بديهتي تتقلَّق

ما لي أراك ولستَ مثلي في الورى مُتمَوِّها بالترهات تُمَخرِقُ

ونظم أبياتًا، ثم اعتذر، فقال: هذا كما يجيء لا كما يجب، فقال البديع: . قبل الله عذرك، لكن وقفت بين قافات خشنة، كل قاف كجبل قاف، فخذ الآن جزاءً عن قرضك، وأداء لفرضك: .

مهلا أبا بكر فزَندُكَ أضيق واخرس فإن أخاك حي يرزق

يا أحمقًا وكفاك تلك فضيحة جربت نار معرَّتي هل تحرق؟

فقال له أبو بكر: يا أحمقًا! لا يجوز؛ فإنه لا ينصرف، فقال البديع: لا نزال نصفعك حتى ينصرف وتنصرف معه، وللشاعر أن يرد ما لا ينصرف، وإن شئتَ قلتُ: يا كودنًا، وقولك في البيت الأول: يا سيدي – وقولك: تتقلق مدحت أم قدحت؟ فإن اللفظين لا يركضان في حلبة.

***– قال البديع : .**

برز الربيع لنا برونق مائه فانظر لمنظر أرضه وسمائه

والترب بين ممسّك ومعنبر من نوره بل مائه وروائه

ثم أنشد الخوارزمي على هذا النمط، فلما فرغ من إنشاده، قال البديع للوزير والرئيس: لو أن رجلاً حلف بالطلاق أني لا أقول شعرًا، ثم نظم تلك الأبيات التي قالها الخوارزمي، هل كنتم تطلقون امرأته عليه؟ فقال الجماعة: لا يقع بهذا طلاق، ثم قال لأبي بكر: انقد عليَّ فيما نظمتُ، واحكم عليه كما حكمتُ، فأخذ الأبيات وقال: لا يقال نظرت لكذا، ويقال نظرت إلى كذا، وأنت قلت: فانظر لمنظر، وشبهت الطير بالمحصنات، وهذا تشبيه فاسد، ثم شبهتها بالمغنيات حين قلت: . والطير مثل المحصنات صوادح

كيف توصف المحصنات بالغناء؟ ثم قلت: كالبحر في تزخاره، والغيث في إمطاره، والغيث هو المطر، فقال البديع: الغيث: المطر والسحاب، وصدقه الحاضرون".

*** "فقال البديع : ▪**

يا نعمة لا تزال تجحدها ومنة لا تزال تكندها

فقال أبو بكر : الكنود: قلة الخير لا الكفران، فكذبه الجمع، وقالوا: ما قرأت قوله تعالى: "إن الإنسان لربه لكنود"؛ أي لكفور.

وغير بعيد عن القارئ غلبة الهمذاني، فقد أصابت سهامه النقدية كبد نتاج خصمه، وحين أراد الخوارزمي أن يقف موقف الناقد جاءت تعليقاته هزيلة، وشهد الحضور عليها.

ومن سبل المناظرة بينهما: الحفظ، يقول ياقوت: "ثم أنشد القَوَّال: .

وشبهنا بنفسج عارضيه بقايا اللطم في الخد الرقيق

فقال الخوارزمي: أنا أحفظ هذه القصيدة، فقال البديع: أخطأت، فإن البيت على غير هذه الصيغة، وهي: . وشبهنا بنفسج عارضيه بقايا الوشم في الوجه الصفيق

فقال له أبو بكر: . والله لأصفعنك ولو بعد حين، فقال له البديع: أنا أصفعك اليوم وتضربني غدًا، فاليوم خمر، وغدًا أمر".

ومن مجالات التناظر بين الرجلين: الاعتماد على الثقافة اللغوية، وهو ما بدا في هذا الموقف: "فلما قام أبو بكر أشار إلى البديع وقال:

لأتركنك بين الميمات، فقال: ما معنى الميمات؟ فقال: بين مهدوم، ومهزوم، ومغموم، ومحموم، ومرجوم، ومحروم، فقال البديع: لأتركنك بين الهيام، والسقام، والسام، والبرسام، والجذام، والسرسام، وبين السينات: بين منحوس، ومنخوس، ومنكوس، ومعكوس، وبين الخاءات: من مطبوخ، ومسلوخ، ومشدوخ، ومفسوخ، وممسوخ، وبين الباءات: بين مغلوب، ومسلوب، ومصلوب، ومنكوب".

المبحث الثاني

مناظرة الهمذاني والخوارزمي في الميزان النقدي

المناظرات لون نثري يعتمد على طرق يسلكها الخصمان، بعضها منقول، والآخر مرتجل، وكثير من ألفاظها وتراكيبها تلفَّظَ به الراوي، فتصعب دراستها بصورة مستقلة؛ ولهذا ارتأى الباحث أن تنحصر الدراسة النقدية هنا في جانبين: .

الأول : . **البناء الفني للمناظرة .**

الثاني : . **الأسلوب .**

أولاً: ـ البناء الفني : . **تعتمد المناظرات في بنائها على الشروط التي صاغها دارسو هذا الفن١، ومتى توافرت كلها أو جلها حُكم على العمل بأنه مناظرة .**

وعلى الدارس للبناء الفني أن يبحث عن أمرين قبل النظر إلى الشروط، وأعني بهما:

١ – تحديد الغاية والهدف .

٢ – طرق ومضمون الحوار بين المتناظرين .

والمتأمل في لقاءات الرجلين، وما دار بينهما من نقاش يلمس حضورًا للغاية والهدف، والشروط المنصوص عليها من دارسي هذا الفن، وقد سبقت الإشارة إلى أهداف المناظرة، وطرق حوارها٢، وبهذا تحقق ركن

---

١ سبقت الإشارة إليها في صـ ٩ .

٢ صـ ٢٤ وما بعدها .

ركين من البناء الفني لهذا اللون الأدبي؛ إذ إن تحديد الهدف، وسبل الوصول إليه شرط رئيس في جدوى العمل وفائدته.

وبالالتفات إلى الشروط، ومحاولة التماسها في مناظرة الهمذاني والخوارزمي يقف المتابع لأحداث اللقاء على تحققها بصورة توضحها السطور الآتية: .

*** تحديد الزمان والمكان: . دارت بعض الأحداث في ضيافات نيسابور، وهو مكان يجتمع فيه وجهاء القوم وعامتهم للتشاور في الأمور الجسام، وفيه كانت المناقشات والاختصامات، يقول ياقوت واصفًا انتهاء أحداث الليلة الأولى من ليالي المناظرة: . "فأمال النعاس الرؤوس، وسكنت الألحان والنفوس، وسلب الرقاد الجلوس، فنام القوم كعادتهم في ضيافات نيسابور، وأصبحوا فتفرقوا، وبعضهم يحكم بغلبة البديع، وبعضهم يحكم بغلبة الخوارزمي".**

حدد الراوي مكان المناظرة – ضيافات نيسابور – وزمانه – الليل – وصفات الحاضرين، فهم خليط من الوجهاء وغيرهم، والجو العام: فالمجلس حلبة صراع ومرح للتشجيع والتحفيز، وطريقة انتهائها حيث "سكنت الألحان والنفوس، وسلب الرقاد الجلوس".

وقريب من هذا وصف ياقوت لليلة أخرى، حيث يقول: "وكان بعض الرؤساء مستوحشًا من الخوارزمي، وهيأ مجمعًا في دار الشيخ السيد أبي القاسم الوزير، وكان أبو القاسم فاضلاً ملء إهابه، وحضر أبو الطيب سهل الصعلوك، والسيد أبو الحسين العالم، فاستمال البديع قلب السيد أبي الحسين بقصيدة قالها في مدح أهل البيت أولها : .

يا معشرا ضرب الزمـ ـان على معرسهم خيامه

*** التقاء الطرفين: وهو ما حرص عليه الهمذاني حين عُرضت عليه فكرة المناظرة مع الخوارزمي، يقول : "واتفق أن السيد أبا علي نشط للجمع بيني وبينه، فدعاني، فأجبت، ثم عرض علي حضور أبي بكر فطلبت ذلك."١، وحرص على تحقق هذا الشرط أيضًا من له علم بأسس هذا الفن ممن حضروا اللقاء، فلا مناظرة بغير التقاء الطرفين، يقول ياقوت: "فجمع السيد نقيب السادة بنيسابور أبو علي بينهما، وأراده على الزيارة، فترفَّع، فبعث إليه السيد مركوبه، فحضر أبو بكر".**

*** الاستشهاد : وهو من أسس هذا الفن؛ طلبًا لتوكيد القول، وللاستشهاد وجوه : .**

١ – الاقتباس من القرآن الكريم، ولا شك في أنه أقوى الأدلة، وهو ما يبدو في الآتي : .

*** قول الخوارزمي للبديع "أقول لك ما قال موسى للسحرة: (قال بل ألقوا)"، وكأني بأبي بكر يرنو إلى إثارة من حضر اللقاء ضد خصمه، ويعلي من قدر نفسه، ويحاول أن يبث الشجاعة في نفسه وتلاميذه من خلال الإيحاء بأن النصر حليفهم وطريقهم، فهم على الحق، وخصمهم على الباطل، والحق أبلج ومنتصر.**

*** "قال البديع : .**

---

١ رسائل الهمذاني، صـ ١٩ .

يا نعمة لا تزال تجحدها ومنة لا تزال تكندها

فقال أبو بكر: الكنود: قلة الخير لا الكفران، فكذبه الجمع، وقالوا: ما قرأت قوله تعالى : "إن الإنسان لربه لكنود"؛ أي لكفور".

٢ – الاستدلال بأقوال مأثورة؛ كالشعر، والأمثال، وهو ما برز بوضوح في قول الهمذاني لخصمه: "أنا أصفعك اليوم وتضربني غدًا، فاليوم خمر، وغدًا أمر، وأنشد قول ابن الرومي:

رأيت شيخًا سفيهًا يفوق كل سفيه

وقد أصاب شبيهًا له وفوق الشبيه

حيث استعان بالمثل الجاهلي المعروف "اليوم خمر وغدًا أمر"، وبقول ابن الرومي.

٣ – الاستعانة بمن حضر اللقاء، واتخاذه شاهدًا ومؤكدًا لرأيه وقوله، وحكمًا يُرجع إليه عند الانتهاء، والمتتبع لأحداث المناظرة يدرك حضور جمع ضم الوجهاء وغيرهم، يقول ياقوت:. "فحضر أبو بكر مع جماعة من تلامذته" و "فنام القوم كعادتهم في ضيافات نيسابور" و "وسعى الفضلاء بينهما بالصلح" و "ثم أنشد القوَّال: .

وشبهنا بنفسج عارضيه بقايا اللطم في الخد الرقيق

و "وكان بعض الرؤساء مستوحشًا من الخوارزمي، وهيأ مجمعًا في دار الشيخ السيد أبي القاسم الوزير، وكان أبو القاسم فاضلاً ملء إهابه، وحضر أبو الطيب سهل الصعلوك، والسيد أبو الحسين العالم ،... ... ، ثم حضر المجلس القاضي أبو عمر البسطامي، وأبو القاسم ابن حبيب،

والقاضي أبو الهيثم، والشيخ أبو نصر ابن المرزبان، ومع الإمام أبي الطيب الفقهاء والمتصوفة، وحضر أبو نصر الماسرجسي مع أصحابه، والشيخ أبو سعد الهمذاني، ودخل مع الخوارزمي جمع غفير من أصحابه"، وفي هذا دليل على : .

١ – حضر المناظرة جمع غفير ضم فئات شتى، منهم القوَّال، وعامة القوم، ووجهاؤهم.

٢ – حرص المتناظران، والحضور من الوجهاء، على استمالة القوم وجذبهم بحسن الصياغة، وتنوع الأداء وقوته؛ فتنوعت الأساليب، وكان الحرص على الإثارة هو السمة الغالبة، ومن ألون الإثارة ما فعله القوَّال حين أنشد البيت بغير صورته لاختبار الرجلين، فوقع الخوارزمي في الفخ بعجلته وتسرعه.

*** <u>التسليم بالحقيقة بعد الانتهاء</u>، ولو كان التسليم قسرًا، يقول ياقوت: "فخرج البديع وأصحاب الشافعي يعظمونه بالتقبيل والاستقبال والإكرام والإجلال، وما خرج الخوارزمي حتى غابت الشمس، وعاد إلى بيته وانخزل انخزالاً شديدًا، وانكسف باله، وانخفض طرفه"، فتسليم الخوارزمي وتلامذته بتفوق الهمذاني جاء قسرًا، ويدل على ذلك : .**

١ – تغير حال أبي بكر وانخزاله.

٢ – افتقاد المناظرة في تراث الخوارزمي، مما يدل على تسليمه بالهزيمة، وحيائه من ذكرها.

وإذا كان النقصان من سمات عمل بني الإنسان فإن للبناء الفني هنا نقاط ضعف، أبرزها:

١ – الانفعال وعدم ضبط النفس، ومن ذلك: .

*** قول الخوارزمي للبديع: "والله لأصفعنك ولو بعد حين، فقال له البديع: أنا أصفعك اليوم وتضربني غدًا".**

*** وقوله: "لأتركنك بين الميمات، فقال: ما معنى الميمات؟ فقال: بين مهدوم، ومهزوم، ومغموم، ومحموم، ومرجوم، ومحروم، فقال البديع: لأتركنك بين الهيام، والسقام، والسام، والبرسام، والجذام، والسرسام، وبين السينات: بين منحوس، ومنخوس، ومنكوس، ومعكوس، وبين الخاءات: من مطبوخ، ومسلوخ، ومشدوخ، ومفسوخ، وممسوخ، وبين الباءات: بين مغلوب، ومسلوب، ومصلوب، ومنكوب".**

٢ – الابتعاد عن التواضع، وخفض الصوت، وغث الكلام، وهو ما بدا ظاهرًا في : .

*** قول أبي بكر: "أنا اكتسبت بفضلي دية أهل همذان، فما الذي اكتسبت أنت بفضلك؟ فقال له البديع: أنت في حرفة الكدية أحذق، وبالاستماحة أحرى وأخلق"، حيث خرجت المناظرة عن التواضع والحرص على الإفادة العلمية إلى التعالي والشتائم.**

*** وقول الهمذاني:**

مهلاً أبا بكر فزَندُكَ أضيق واخرس فإن أخاك حي يرزق

يا أحمقًا وكفاك تلك فضيحة جربت نار معرَّتي هل تحرق؟

فقال له أبو بكر: . (يا أحمقًا) لا يجوز؛ فإنه لا ينصرف، فقال البديع: . لا نزال نصفعك حتى ينصرف، وتنصرف معه، وللشاعر أن يرد ما لا ينصرف، وإن شئتَ قلتُ: يا كودنا"، وهي أمور مستهجنة غير أنها لا تطعن في البناء الفني للمناظرة، فأسسه متوافرة.

ثانيًا: الأسلوب : . **وأعني به طرائق التعبير التي انتهجها المتناظران في الخلوص إلى الغاية المرجوة عند كليهما، وهو في مناظرة الهمذاني والخوارزمي ذو أفنان، أظهرها: .**

١ – أسلوب السخرية والتندر[١]، وقد جنح إليه البديع في غير موقف، ومنها: .

*** " مهلاً أبا بكر فزَندُكَ أضيق واخرس فإن أخاك حي يرزق**

يا أحمقًا وكفاك تلك فضيحة جرّبت نار معرّتي هل تحرق ؟

فقال له أبو بكر: . (يا أحمقًا) لا يجوز؛ فإنه لا ينصرف، فقال البديع: . لا نزال نصفعك حتى ينصرف، وتنصرف معه".

*** "فقال له أبو بكر: . أنا اكتسبت بفضلي دية أهل همذان، فما الذي اكتسبت أنت بفضلك؟ فقال له البديع: أنت في حرفة الكدية أحذق، وبالاستماحة أحرى وأخلق".**

---

١ ينبغي الإشارة إلى أن مثير الضحك أمر نسبي، فأسلوب السخرية المضحك لقوم قد لا يثير نفس المشاعر عند آخرين.

*** "فقام البديع وقبَّل رأس الخوارزمي ويده وقال: اشهدوا أن الغلبة له، علي سبيل الاستهزاء".**

ولم يسلك الخوارزمي سبيل خصمه في السخرية، ولعل السبب راجع إلى : .

أ – ترفُّعه عن هذا المسلك لكبر سنه ووقاره، ومكانته بين قومه، فهو يرى أن التندُّر بالآخرين يضفي على الساخر مسحة من المهانة، فتزدريه العيون، ولا شك في إدراك الهمذاني لهذا؛ ولكنه قدَّم الطعن في مكانة الشيخ والنيل منه على ما قد ينزل به جراء السخرية.

ب . صعوبة الموقف وشدته، فهو يتناظر بكل جد واجتهاد للمحافظة على مكانته التي يسعى خصمه إلى النيل منها، ومن في مثل موقفه تنأى مشاعره عما يثير الضحك، أو الرغبة فيه.

وسخرية الهمذاني من أبي بكر مردها إلى : .

أ – إدراكه أن النصر أصبح قاب قوسين أو أدنى، فَعَلَت همته، وأراد أن يبث الوهن في عزيمة خصمه بإثارة غضبه، فتتداخل أفكاره، ويتشتت ذهنه، فيخطئ كثيرًا.

ب – إدراكه للقيمة الفنية لأسلوب التندر والسخرية، وإظهار الخصم في صورة أضحوكة للحاضرين، فقديمًا جنح شعراء النقائض[١] إلى مثل هذا؛ لعلمهم بأثره، فالسخرية والتهكم منهج "يتخذونه وسيلة للتنفيس عن

---

١ تفيض نقائض العصر الأموي بهذا الأسلوب، وكان جرير فارسه الأول .

نفوسهم؛ حتى لا تضعف أمام شرور الناس وحمقهم، فتمتلئ بكراهيتهم والحقد عليهم، ثم تمتلئ بكراهية الحياة والحقد عليها"١.

ويتعدى أثر السخرية المتحدث إلى خصمه، والحضور، فتكون "طمعًا في ردِّه إلى نصابه، وإرجاعه إلى قرابه، أو رغبة في التسلية والمرح، والترويح عن النفس"٢.

٢ – <u>التعريض:</u> وهو سبيل سلكه الهمذاني كثيرًا، وحرص عليه؛ طعنًا في مكانة خصمه، وإثارة لغضبه، وكسبًا لاحترام الحضور حين يظهر في صورة رجل عفيف اللسان، غير متطاول على شيخ نيسابور، وفي المجلس وجهاء القوم وخاصتهم، ويبدو ذلك في : .

*** "ثم أنشد الخوارزمي على هذا النمط، فلما فرغ من إنشاده، قال البديع للوزير والرئيس: لو أن رجلاً حلف بالطلاق أني لا أقول شعرًا، ثم نظم تلك الأبيات التي قالها الخوارزمي، هل كنتم تطلقون امرأته عليه؟ فقال الجماعة: لا يقع بهذا طلاق".**

وغير بعيد عن القارئ ما في قول الهمذاني من تعريض بخصمه، ورمي له بالجهل، وينال تعريضه قبول الحاضرين، فتأتي إجابتهم لسؤاله على غير ما يشتهي الخوارزمي.

---

١ السخرية في أدب الجاحظ، السيد عبد الحليم محمد حسن، صـ ٩٩، ط. الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، ليبيا، ط. الأولى، سنة ١٣٩٧ هـ = ١٩٨٨م.

٢ السابق، صـ ٦٢ .

*** قوله لأبي بكر: "وإن شئتَ قلتُ يا كودنًا" فقوله "يا كودنًا" يحتمل معنيين: .**

الأول: البغل، وفي هذا ذم صريح.

الثاني: الهجين، وفيه تعريض بأصل الخوارزمي غير العربي، فكأني به يصف خصمه بالجهل، ولا غرو فأصله أعجمي، وقد خدع القوم دهرًا بادعائه العلم والحفظ.

والتعريض سبيل سلكه الخوارزمي قليلاً في مطلع المناظرة، حيث يقول للهمذاني: "أقول لك ما قال موسى للسحرة: قال بل ألقوا"، فكأني به يعرض بالبديع ويتهمه بادعاء العلم والمقدرة على النظم، ومحاولة التقرب من وجهاء القوم – أعداء الخوارزمي – مع بطلان دعواهم جميعًا.

والتعريض سبيل يتوافق و "طبيعة المتأدب، الناضج الفكر، الواسع الحيلة، الذي يدرك باللين والتعريض أكثر مما يناله غيره بالعنف فيزيل مشكلاته ويقتل خصومه"١.

٣ – <u>التصريح :</u> وهو سبيل سلكه المتناظران كثيرًا، وكان جدير بهما مجافاته، فمن آداب التناظر: . ضبط النفس، والبعد عن غث الحديث وشتائمه، ومن نماذجه عندهما: .

*** "فقال له البديع: . أما تستحي أن يكون السنور أعقل منك؛ لأنه يجعر فيغطيه بالتراب".**

---

١ السخرية في أدب الجاحظ، السيد عبد الحليم، صـ ٥ .

*** "فقال له أبو بكر: . والله لأصفعنك ولو بعد حين".**

٤ – الموازنة : . وهي أسلوب سلكه الهمذاني؛ ليغيظ خصمه، ويظهر جهله، ويبدو في قوله لأبي بكر: "أما تستحي أن يكون السنور أعقل منك؛ لأنه يجعر فيغطيه بالتراب"، فقد وازن البديع بين الخوارزمي والسنور، وخرج بنتيجة اعتمدها حقيقة ثابتة، وهي أفضلية السنور، وعلل لهذا الحكم بتعليل طريف حين قال: " لأنه يجعر فيغطيه بالتراب".

وللموازنات في الأدب العربي مكانة وأثر واضح لا يدرك كنهه إلا بصير بهذا الفن، فبضدها تتميز الأشياء، وقليل من المبدعين من ينتبه إلى خطورة الموازنات وأثرها، ومتى تمكن المبدع من إجراء موازنة وأردفها بنتيجة، وتعليل أدرك غايته، وترك أثرًا واضحًا في نفس المتلقي، ولا غرو فقد "فُطر الناس على حب المفاضلة بين الوسائل التي ترمي إلى غرض واحد، والموازنة بين الأنواع التي ترجع إلى أصل واحد، وقد ظهرت هذه الفطرة واضحة جلية حين ظهر الشعر، وتبارى في قرضه الشعراء"١.

٥ – الاستعانة بعدد من الأساليب البلاغية ذات الأثر الواضح :

فقد جاء بعضها مستمدًّا من فنون علم المعاني، وأكثرها مستعينًا بألوان من علم البديع، فمن الأول كان "القصر" في قول الهمذاني لخصمه: "إنما دعوناك لتملأ المجلس فوائد، وتذكر الأبيات الشوارد، والأمثال الفوارد،

---

١ الموازنة بين الشعراء، د. زكي مبارك، صـ ٧، ط. دار الجيل، ط. الأولى، سنة ١٤١٣ = ١٩٩٣م.

ونباحثك فنسعد بما عندك، وتسألنا فتسرّ بما عندنا"، حيث قصر دعوته للخوارزمي إلى التناظر على الإفادة العلمية؛ لسببين : .

الأول : . المحافظة على أسس فن المناظرة، أمام دارسيها والحضور.

الثاني : . إزالة ما قد يقع في النفس من أن الدعوة مؤامرة حيكت للفتك بشيخ نيسابور.

وتصدير الأسلوب بـ "إنما" دون غيرها من أدوات القصر يبدي براعة الهمذاني وإدراكه لأسرار هذه الأساليب، فـ "الأصل في إنما أن تجيء لأمر من شأنه أن يجهله المخاطب ولا ينكره، وإنما يراد تنبيهه فقط، أو لما هو منزل هذه المنزلة"١، وكأني بالبديع قد رنا إلى تنبيه خصمه إلى حقيقة غابت عنه، وهي أن الهدف من المناظرة ليس كما يعتقد، أي الانتقام منه لما تقدمها من أحداث، ومن أجل هذا كان رافضًا الحضور، وإنما الهدف الإفادة العلمية، وجاءت "إنما" لتوكيد رؤية الهمذاني وإزالة ما سواها من نفس الخوارزمي، فهي "تفيد الإثبات للشيء، والنفي عن غيره دفعة واحدة"٢.

ومن الألوان البديعية الواردة في المناظرة : .

*** <u>السجع :</u> . وهو أسلوب سلكه البديع في غير موقف من مواقف المناظرة، ومن نماذجه:.**

---

١ جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، السيد أحمد الهاشمي، صـ ١٦٨، ط. المكتبة العصرية، ط . الأولى، سنة ١٩٩٩م.

٢ السابق، صـ ١٦٩ .

*** قوله : "ونبدأ بالفن الذي ملكت زمامه، وطار به صيتك، وهو الحفظ إن شئت، والنظم إن أردت، والنثر إن اخترت، والبديهة إن نشطت".**

*** "فقال له البديع: أنت في حرفة الكدية أحذق، وبالاستماحة أحرى وأخلق".**

والسجع محسن لفظي يشترط لحسنه تساوي الفِقَر فـ "أفضل السجع ما تساوت فقره، ولا يحسن إلا إذا كان رصين التركيب، سليمًا من التكلف، خاليًا من التكرار في غير فائدة"١، وهي شروط يدركها المتلقي للنص، فيلمس أديبًا ملمًّا بقواعد اللغة، ودقائق أسرارها.

*** الجناس : - ويبدو في قول البديع : . "كل قاف كجبل قاف" و "لا نزال نصفعك حتى ينصرف وتنصرف معه"، فبين "قاف" و "قاف" جناس تام ، و "ينصرف" و "تنصرف" جناس ناقص، وفي كلٍّ يلمس المتلقي طبعًا سمحًا غير متكلف؛ مما يضفي على الأسلوب روعة وقبولاً وتوكيدًا وإيضاحًا وإدراكًا للغاية، فالجناس "لا يستحسن إلا إذا ساعد اللفظ والمعنى، ووازى مصنوعه مطبوعه مع مراعاة النظير"٢.**

والمحسن اللفظي "في مذهب كثير من أهل الأدب غير محبوب؛ لأنه يؤدي إلى التعقيد، ويحول بين البليغ وانطلاق عنانه في مضمار المعاني،

---

١ البلاغة الواضحة، على الجارم ومصطفى أمين، جـ ٢، صـ ٢٧٣، ط. دار المعارف، سنة ١٩٩٩م.

٢ جواهر البلاغة، الهاشمي، صـ ٣٢٥ .

اللهم إلا ما جاء منه عفوًا، وسمح به الطبع من غير تكلف"١. وهو ما سلكه الهمذاني؛ فالموقف موقف مغالبة لا مجال فيه للزينة، وطلب الزخرف اللفظي أو المعنوي.

تعليق ورأي

يقف المتلقي لمناظرة الهمذاني والخوارزمي أمام نقاط قوة ترفع من قدرها، لعل أبرزها: .

*** اعتمد المتناظران على الأدلة المقنعة في ظاهرها، فما أن تصل إلى المتلقي حتى يقتنع بها، ثم يأتي اعتراض الخصم فيذهب بهذا الاقتناع.**

*** تناولت المناظرة مسائل شتى وأفكارًا متنوعة، وهو لون طريف يعدُّ تطورًا، إذ المعهود أن تدور المناظرة حول فكرة واحدة، أو مسألة علمية محددة.**

*** تحققت في المناظرة جُلُّ شروط هذا الفن كما صاغها دارسوه، فاكتسبت قيمة، وعلا قدرها، فصارت حديث الركبان.**

ولا تخلو المناظرة من مآخذ، كان أبرزها: ـ

*** التباين في الأهداف بين الحقيقة وما سواها، والمثالية وما دونها، حيث كان من أهدافها: .**

---

١ البلاغة الواضحة، على الجارم ومصطفى أمين، جـ ٢، صـ ٢٦٥ .

١ – الرغبة في الانتقام من أبي بكر، وهو هدف بعيد عن المثالية.

٢ – الترفيه والتسلية.

٣ – الوقوف على الفوائد العلمية، وهو هدف مثالي، وإن كان مجافيًا للحقيقة.

٤ – التفاخر واستعراض البديع لقدراته العلمية؛ بغية النيل من قدر خصمه؛ وحسدًا له.

*** عرض المناظرة بطريقة غير سليمة، مما أثار الشكوك حولها، فحين ذكرها ياقوت وغيره ذكرها بلسان الهمذاني، فثارت بعض الشبهات حول صدقها، وصحة أحداثها، وزاد الشك حين تجاهلها الخوارزمي، وكان على رواتها البحث عن طريقة أخرى للعرض غير مثيرة للشك.**

*** أدى تجاهل الخوارزمي لذكر المناظرة أو الإشارة إليها في تراثه إلى افتقادها فوائد جمة، فلو علل الرجل ما حدث، وذكر المواقف والمشاهد كما رآها، وأبدى رأيه فيها لكان للمناظرة شأن أكبر، وأثر أعمق، وأدرك المتلقي أبعادًا أخرى متنوعة ومفيدة.**

ويحمد للهمذاني : -

*** امتلاكه زمام المبادرة في غير موقف من مواقف المناظرة، مما ينمُّ عن ذكاء وفطنة، فالسابق حظه في الفوز أكبر من صاحبه، فهو الذي يختار الموضوع والوزن والقافية ...إلخ، فيضيق المجال أمام اللاحق.**

*** حسن التخلص في مواطن الضعف، وهو ما بدا واضحًا في افتخار الخوارزمي بفضل اكتسبه وعجز عنه الهمذاني، حين قال: "أنا اكتسبت بفضلي دية أهل همذان، فما الذي اكتسبت أنت بفضلك؟ فقال له البديع: أنت في حرفة الكدية أحذق، وبالاستماحة أحرى وأخلق".**

*** توافر الموهبة النقدية، والبراعة في استخدامها، وهو ما بدا في غير موقف من مواقفه النقدية لأبيات الخوارزمي، وأفكاره.**

*** استمالة قلوب الحاضرين وكسب عطفهم، مما يدل على ذكائه، واستعانته بكل ما يمهد الطريق إلى هدفه، وهو ما يبدو في مواطن كثيرة، ومنها استهلاله المناظرة في الليلة الثانية بقصيدة في مدح آل البيت.**

*** امتلاكه زمام الأساليب البلاغية، فبدت براعته في سبر أغوارها ودقائق أسرارها، فأحسن استخدامها بطريقة أسهمت في صقل أساليبه، وتوكيد معانيه، فلم تقتصر على الزخرفة، فالمجال مجال مغالبة لا قيمة للزخرفة فيه.**

ويؤخذ عليه : -

*** تجاوزه حدود الأدب في حديثه، وهو ما بدا في قوله لأبي بكر: . " لا نزال نصفعك حتى ينصرف، وتنصرف معه" و"أما تستحي أن يكون السنور أعقل منك" و قوله على سبيل السخرية وإضحاك الحضور: "اشهدوا أن الغلبة له"، فلم يراع مكانة الرجل ولا كبر سنه.**

ويحمد للخوارزمي : -

*** محاولة سبر أغوار خصمه بتقديمه في المبادهة، حيث أراد الاستعداد للمبارزة، والوقوف على مواطن الضعف عند الهمذاني.**

*** الاعتماد في نقده لشعر البديع على التنوع الثقافي، وكانت قدراته اللغوية أبرز طرق نقده، ويبدو ذلك في نقده لقول البديع: "يا أحمقًا وكفاك تلك فضيحة * جرّبت نار معرّتي هل تحرق؟ " فقال له أبو بكر : . (يا أحمقًا) لا يجوز؛ فإنه لا ينصرف".**

ويؤخذ عليه : -

*** اهتزاز ثقته بنفسه وقدراته العلمية قبل خوضه المناظرة، مما انعكس سلبًا عليه وإيجابًا على خصمه الذي ازداد جرأة وثقة في النيل من شيخ همذان، فحين أحجم الخوارزمي عن الحفظ بدا راعش الأركان مستعدًّا للهزيمة، واثقًا من قدرات الفتى المتربص به.**

*** الغضب وانفلات زمام مشاعره، مما حدا به إلى اتخاذ مواقف زلت فيها قدمه، ورفعت من قدر خصمه، فقبيل نهاية المناظرة يهدد الهمذاني بقوله: "لأتركنك بين الميمات، فقال: ما معنى الميمات؟ فقال: بين مهدوم، ومهزوم، ومغموم، ومحموم، ومرجوم، ومحروم"، متجاهلاً آداب الحوار، وغافلاً عن براعة خصمه اللغوية، فتكون العاقبة على غير ما يشتهي، حيث يجيبه الهمذاني بسيل من التهديدات بدت في قوله : "لأتركنك بين الهيام، والسقام، والسام، والبرسام، والجذام، والسرسام، وبين السينات: بين منحوس، ومنخوس، ومنكوس، ومعكوس، وبين الخاءات: من مطبوخ،**

ومسلوخ، ومشدوخ، ومفسوخ، وممسوخ، وبين الباءات: بين مغلوب، ومسلوب، ومصلوب، ومنكوب".

خاتمة

في أعقاب جولة قضاها الباحث في دراسة فن المناظرات عامة ومناظرة الهمذاني والخوارزمي خاصة خرج البحث بالنتائج الآتية : .

*** * للمناظرة أركان وشروط، والتحلل من بعضها لا ينفي عنها صفتها، وما ذكره بعضهم من مسميات كالمجادلة، والمكابرة، والمعاندة، يعد طوراً من أطوار التناظر، فكنهها وسبيلها واحد، وأهدافها متباينة.**

*** * المناظرة من أهم أشكال الخطاب الأدبي؛ فهي تقوم على المجادلة التي تستدعي من المناظر بسط الحجج التي تقنع المتلقي وتستميل عواطفه، فتؤثِّر فيه.**

*** * ورد ذكر (مناظرة الهمذاني والخوارزمي) في غير مصدر ومرجع؛ مما يؤكد صحة ثبوتها، وينفي ما أثير حولها من شكوك؛ لافتقادها في تراث الخوارزمي.**

*** * ذاع خبر المناظرة فبلغت العيوق شهرة، حيث رفعت من قدر مغمور، وحطَّت من شأن مشهور، كما أنها ضمت بين طياتها ثروة لغوية، وأدبية، كبيرة، ورائعة.**

*** * بدا تفوق الهمذاني في غير موقف من مواقف، وساعده على ذلك أمور، أبرزها: عدم إتقان خصمه لفن التناظر، وسيطرة الخوف عليه بعد أن أدرك قدرات البديع واضحة من رسائل جرت بينهما قبل اللقاء.**

*** * تعد المناظرة دليلاً على تطور أصاب هذا الفن، وبدا أثره في: .**

١ – الغاية المنشودة منه، وهي طلب الحقيقة، غير أن هذه الغاية تحولت إلى الرغبة في الانتقام، أو التفاخر.

٢– تنوعت موضوعات المناظرة، وعناصرها الفكرية، حيث تطرقت إلى علوم شتى، وكانت قبل ذلك تدور في فلك موضوع واحد، أو مسألة علمية واحدة.

*** * نهض الحوار بدور بارز في البناء الفني للمناظرة، حيث تنوعت طرقه، واتسم أحيانًا بسمات القوة، وأخرى بالضعف والهزال؛ متأثرًا بتنوع العاطفة في المواقف المتباينة.**

*** * استعان الرجلان في التناظر بعدد من الألوان البلاغية، وكان الاعتماد على أساليب بديعية بعينها مؤثرًا في المتناظرين والحضور؛ لما يتمتع به ذلك الأسلوب من سمات موسيقية، وبراعة من المتحدث في توظيفها.**

*** * اعترت المناظرة مآخذ، كانحراف غايتها عن المعهود في أمثالها، ولكنها أمور لا تقدح في قيمتها الأدبية والفنية، إذ تَوفَّرَ لها من أسباب القوة ما جعلها حديث الركبان.**

المصادر والمراجع

١ – الأعلام لخير الدين بن محمود الزركلي، ط. دار العلم للملايين، ط. الخامسة عشرة، سنة ٢٠٠٢م.

٢ – الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين لأبي البركات بن الأنباري، ت: د. جودة مبروك، ط. مكتبة الخانجي، ط. الأولى.

٣ – بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط. المكتبة العصرية، بيروت.

٤ – البلاغة الواضحة، على الجارم ومصطفى أمين، ط. دار المعارف، سنة ١٩٩٩م.

٥ – جواهر الأدب للسيد أحمد الهاشمي، ط. مؤسسة المعارف، بيروت.

٦ – جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، السيد أحمد الهاشمي، ط. المكتبة العصرية، ط. الأولى، سنة ١٩٩٩م.

٧ – ديوان بديع الزمان أحمد بن الحسين الهمذاني، ت: يسري عبد الغني عبد الله، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، ط. الثانية، سنة ١٤٢٤هـ = ٢٠٠٣م.

٨ – ديوان ابن الرومي علي بن العباس، علي بن العباس، شرح: أحمد حسن بسج، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، ط. الثالثة، سنة ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٢م.

٩ – ديوان الإمام الشافعي محمد بن إدريس، ت: د. إميل بديع يعقوب، ط. دار الكتاب العربي، بيروت، ط. الثالثة، سنة ١٤١٦هـ = ١٩٩٦م.

١٠ – ديوان أبي الشيص محمد بن نهشل الخزاعي، ت: عبد الله الجبوري، ط. المكتبة الإسلامية، بيروت، ط. الأولى، سنة ١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م.

١١ – رسائل أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني، ط. الجوائب بالأستانة، ط. الأولى، سنة ١٢٩٨هـ .

١٢ – السخرية في أدب الجاحظ، السيد عبد الحليم محمد حسن، ط. الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، ليبيا، ط. الأولى، سنة ١٣٩٧هـ = ١٩٨٨م.

١٣ – السيرة النبوية لأبي محمد عبد الملك بن هشام، ت: مجدي فتحي السيد، ط. دار الصحابة للتراث بطنطا، ط. الأولى، سنة ١٤١٦هـ = ١٩٩٥م.

١٤ – شرح ديوان المتنبي، عبد الرحمن البرقوقي، ط. دار الكتاب العربي، بيروت، سنة ١٤٠٧هـ = ١٩٨٦م.

١٥ – صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، ت: محمد زهير بن ناصر، ط. دار طوق النجاة، بيروت، ط. الأولى، سنة ١٤٢٢هـ.

١٦ – العقد الفريد، أحمد بن عبد ربه، ت: د . مفيد قميحة، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، ط. الأولى، سنة ١٤٠٤هـ – ١٩٨٣م.

١٧ – الكامل في التاريخ، لأبي الحسن على بن محمد بن الأثير، ت: عمر عبد السلام، ط. دار الكتاب العربي، بيروت، ط. الأولى، سنة ١٤١٧هـ = ١٩٩٧م.

١٨ – الكليات – معجم في المصطلحات والفروق اللغوية لأبي البقاء أيوب الكفوي، ت: د. عدنان درويش، ط. مؤسسة الرسالة، ط. الثانية، سنة ١٤١٩هـ = ١٩٩٨م.

١٩ – لسان العرب لابن منظور، ت: عبد الله الكبير وآخرون، ط. دار المعارف.

٢٠ – مجلة الرسالة، أحمد حسن الزيات، العدد ٣٤٣ .

٢١ – المحاسن والأضداد لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، ط. مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط. الأولى، سنة ١٣٢٤هـ = ١٩٩٤م.

٢٢ – مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، أحمد بن يحيى العمري، ط. المجمع الثقافي في أبي ظبي، ط. الأولى، سنة ١٤٢٣هـ.

٢٣ – معجم الأدباء لياقوت الحموي، ت: د. إحسان عباس، ط. دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط. الأولى، سنة ١٩٩٣م.

٢٤ – المفاخرات والمناظرات، جمع وتحقيق: د. محمد حسان الطيان، ط. دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط. الأولى، سنة ١٤٢١هـ = ٢٠٠٠م.

٢٥ – مقدمة ابن خلدون، ت: عبد الله محمد الدرويش، ط. دار البلخي، دمشق، ط. الأولى، سنة ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م.

٢٦ – الموازنة بين الشعراء، د. زكي مبارك، ط. دار الجيل، ط. الأولى، سنة ١٤١٣ = ١٩٩٣م.

٢٧ – نور النهار في مناظرة الورود والرياحين والأزهار – للمارديني، ت: محمد الششتاوي، ط. دار الآفاق العربية، ط. الأولى، سنة ١٤١٩هـ = ١٩٩٩م.

٢٨ – وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لأبي العباس أحمد بن محمد بن خلكان، ت: د. إحسان عباس، ط. دار صادر، سنة ١٣٩٨هـ = ١٩٧٨م.

٢٩ – يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر لأبي منصور عبد الملك الثعالبي، ت: د. مفيد قميحة، ط . دار الكتب – بيروت، ط. الأولى، سنة ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م.

محتويات البحث

مقدمة

تمهيد:

. التعريف بالرجلين

المناظرة في الأدب العربي.

المبحث الأول : مناظرة الهمذاني والخوارزمي عرض وتحليل

بين يدي المناظرة

نص المناظرة

نظرات تحليلية

أولاً: مصادر المناظرة :

ثانيًا : موضوع المناظرة ، وعناصرها الفكرية :

المبحث الثاني : . مناظرة الهمذاني والخوارزمي في الميزان النقدي

البناء الفني

الأسلوب

تعليق ورأي

خاتمة

المصادر والمراجع

محتويات البحث